

الفصل الرابع عشر

في الوطن، هناك

عاد النبي ﷺ إلى مكة منتصراً وقد أثار عفوه الذي أظهره حتى إلى ألد خصومه، ومع أن الكثيرين قد أهانوه وقاتلوه بل حتى قتلوا أفراداً من أسرته وأصحابه الحميمين، فقد قابلهم بالعفو ونسيان الماضي والحماية، وقد ذكر القرآن أولئك ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾⁽¹⁾. كما سبق أن أعلن الوحي بأنه عندما ينتصر هؤلاء الناس فإنهم سيظلون ملتزمين بكرامتهم الإنسانية وسلوكهم، فوصفهم ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽²⁾.

وكان الرسول ﷺ القدوة الحية لهذا النبل، فهو لم يكن يميل إلى الانتقام أو الثروة أو السلطة، فقد دخل مكة محنياً رأسه لله وذهب ليصلي في الكعبة ويسجد في المسجد الحرام، وحطم الأصنام في عملية تذكر بما فعله إبراهيم عليه السلام، ونطق بعدة أدعية يعبر فيها عن ثقته بالله الواحد الأحد وشكره له، ثم قام أخيراً بإرساء قواعد السلام في مدينة مكة.

حُنين

كان محمد ﷺ يدرك بأنه لا يزال عليه مواجهة عدد من الأخطار التي تتهدد الجماعة الإسلامية، فلم تكن جميع القبائل قد اعترفت

بسلطة النبي ﷺ، وقد رأى بعضهم أنه آن الأوان للإطاحة به، وقد راجت إشاعات بأن قبائل هوازن وحلفاءهم قد حشدوا أكثر من عشرين ألف رجل في شرق مكة وأنهم يستعدون لمهاجمة المسلمين، وقد أرسل النبي ﷺ مستطلعين فعادوا مؤكدين تلك الإشاعات، فكان ينبغي على المسلمين تهيئة أنفسهم على وجه السرعة، فتم حشد جميع المسلمين الذين كانوا قد أتوا من المدينة وانضم إليهم ألفاً من قريش⁽³⁾. وهكذا انطلق محمد ﷺ ومعه جيش مؤلف من اثني عشر ألف من الرجال وهو أكبر عدد قاده في حياته. وقد أعرب بعض الصحابة، مثل أبي بكر رضي الله عنه، عن الثقة بالنفس نظراً لأعدادهم، الأمر الذي استاء منه النبي ﷺ⁽⁴⁾.

كان يقود جيش هوازن محارب شاب اسمه مالك بن عوف النضري، الذي كان قد كون لنفسه سمعة راسخة في الجزيرة العربية، وكان قد أمر جنوده باصطحاب نسائهم وأطفالهم ليؤثروا على العدو بعددهم ويثيروا حماس الجنود، فذهب إلى وادي حنين الذي لا بد للمسلمين الآتين من مكة أن يعبروه وقام في جنح الليل بتوزيع عدد كبير من جنوده ليتمركزوا في الوهاد على جنبي الوادي.

هؤلاء الرجال كانوا لا يرون من الوادي، ونشر بقية الجيش مقابل الممر الضيق بحيث كانوا يواجهون المسلمين القادمين من أسفل الوادي وبالتالي فقد تعمد وضعهم في أماكن حيث يمكن للمسلمين رؤيتهم فيها، كان المسلمون يتقدمون في ضوء الصباح الباكر، عندما أمر مالك فجأة رجاله المختبئين في الوهاد بمهاجمة جيش النبي ﷺ من جناحي الجيش، كانت المفاجأة تامة، ولم يتمكن خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان يتقدم الجيش،

من صد الهجوم: فقد أدى هذا الهجوم إلى هزيمة عامة وحاول المحاربون المسلمون حماية أنفسهم والتراجع بحالة من الفوضى التامة، وقد شاهد النبي ﷺ، الذي كان على مسافة في الخلف في فضاء أكثر انفتاحاً، ما كان يحدث؛ فقام على الفور بجمع صحابته الأقربين وأخذ ينادي المسلمين بمساعدة العباس ﷺ، الذي كان له صوت جهوري أعلى من صوت النبي ﷺ. كان الاثنان يصرخان: «يا أصحاب الشجرة» ليدذكروا المقاتلين بولائهم لما بايعوا النبي ﷺ عليه عندما جرى توقيع معاهدة الحديبية، وقد أدرك هؤلاء ما كان يجري واستجابوا لنداء النبي ﷺ مرددين: «ليكن! ليكن!» وتتابع أعداد الذين جاءوا للانضمام إليه وأعادوا تنظيم أنفسهم بغية شن هجوم معاكس.

وطلب النبي ﷺ بعض الحجارة: وكما فعل في معركة بدر، رماها نحو هوازن ودعا الله: «اللهم: أنجز لي وعدك». ثم أخذ المسلمون يتوجهون نحو العدو بحماسة ملتهبة أثارت الدهشة لدى جميع جنود مالك الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم المعاكس المفاجئ على هذا النطاق الواسع. وكان بين المسلمين امرأة اسمها أم سليم الرميصة، شاركت في القتال مع زوجها الذي أظهر تصميماً شاركه فيه الجميع⁽⁶⁾. لقد جاء الآن دور أعداء المسلمين في الاضطرار إلى الانسحاب ثم الفرار وملاحقة المسلمين لهم، ولجأ مالك أخيراً إلى الطائف لدى بني ثقيف، بينما توارى الآخرون في الجبال، لقد فقدوا الكثيرين من الرجال وتكبدا هزيمة مريرة بعد أن دارت عليهم الدوائر، وقد ذكر الوحي المؤمنين لاحقاً بالجانب الواقعي والعاطفي والروحي المختلف في ذلك القتال:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ (٥٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾.

ومع أن عدد الذين قتلوا كان كبيراً إلا أن النصر كان حاسماً وكلياً وكانت الغنائم التي جمعها المسلمون ضخمة، فبالنسبة للاستسلام وضع النبي ﷺ النساء والأطفال في مكان واحد وأمر بحراستهم وإطعامهم بأفضل ما يكون، ثم أمر بحراسة المطايا والغنائم دون توزيعها على الفور، ولم يتمهل بل أمر رجاله بالسير إلى الطائف، التي التجأ إليها مالك، وبدأ أن الطائف أقل قدرة على المقاومة في المنطقة، غير أن بني ثقيف كانوا مجهزين جيداً بالعدة والطعام والأسلحة، فقام جيش المسلمين بمحاصرة القلعة، لكن سرعات ما اتضح بأنه لن يتمكن من إجبارهم على الخروج بهذه الوسيلة، فبعد أسبوعين قرر المسلمون الرحيل والعودة إلى الجعرانة، حيث تم احتجاز أسرى حنين والغنائم.

أسلاب الحرب

كان قد تم وضع النساء والأطفال الذين تم أسرهم في مكان مغلق فسيح، بمنأى عن الشمس وكان يقدم لهم الطعام الملائم إلى أن عاد محمد ﷺ، وعندما رجع ورأى أن معظم الأسرى يلبسون ثياباً رثة أمر بأن يؤخذ مال من الغنائم لشراء ثياب جديدة من السوق لكل أسير. ثم قرر

توزيع الأسلاب لكنه لم يتصرف بالأسرى الذين أصبحوا أسرى حرب، إذ إنه كان يعتقد بأن هوازن سترسل بالتأكيد وفداً يطلبهم.

بدأ بتوزيع الغنائم ولدهشة الأنصار فإنه أعطى القرشيين، لاسيما أبا سفيان وحكيم (ابن أخ خديجة - رضي الله عنها - الذي دخل للتو في الإسلام)، جزءاً مهماً من الغنائم، وفعل ذلك أيضاً مع صفوان وسهل اللذين قاتلا في حنين لكنهما ظلا مترددين في دخول الإسلام، وقد نزل الوحي يأمر النبي بإبقاء جزء من الغنائم لـ «المؤلفة قلوبهم». ولم يكن ذلك وسيلة لإغراء الناس باعتناق الإسلام بل كان الغرض منه أن يقوي، من خلال عطايا مادية، إيماناً عبر عن نفسه نوعاً ما لكنه ظل هشاً⁽⁸⁾. كان النبي ﷺ يعرف أن شعور صفوان وسهيل كان رقيقاً تجاه الإيمان وأنهما قاتلا بشجاعة مع المسلمين، لذا فقد أعطاهما كميات كبيرة من الغنائم ولم يطلب منهم الدخول في الإسلام. فموقف العفو الذي أظهره عند احتلال مكة، ثم ما بدر منه من شجاعة وثبات أثناء القتال، ثم ما أظهره من سخاء بعد المعركة - كل ذلك أقتعهما بأنه نبي حقاً، أما بالنسبة لأبي سفيان، فقد كان النبي ﷺ يعرف، كما رأينا، مدى أهمية المركز الاجتماعي والمكانة بالنسبة له، فثبت محمد ﷺ مركزه، أما حكيم، فإنه أعرب عن بعض التفاخر عندما أُعطي حصته من الغنائم: كانت حصة ضخمة، وبدا أنه فرح بالكسب المادي أكثر من أي شيء آخر، وقد أضاف محمد ﷺ إلى هذا العطاء درساً روحياً أساساً، مذكراً حكيماً بمقاومة التفاخر بامتلاك الثروة مضيئاً «اليد العليا خير من اليد السفلى»⁽⁹⁾.

فقد ذكره بذلك أن الذين ينفقون بسخاء ويهتمون بالفقراء ، ويعطون من أنفسهم ومن ممتلكاتهم ، لهم مركز روحي أرقى بكثير من الذين يأخذون ويُستعطون ، كما نصحه بأن يعطي بعض مقتنياته لأسرته وجميع الذين يعيّلهم ، كما أعطاه درساً آخر بأن يأخذ بطريقة أكثر كرامة ليعطي بمزيد من التواضع .

مضت سبعة أيام منذ استسلام العدو ولم يأت أحد من هوازن لطلب إعادة نسائهم وأطفالهم لهم ، فظن محمد ﷺ أنهم لن يأتوا فقرّر توزيع الأسرى بين مسلمي قريش (الذين حصلوا أيضاً على حصة أكبر) والأنصار ، ولم يكد ينتهي من التوزيع حتى وصل وفد هوازن ، فأوضح النبي ﷺ لهم أنه انتظر مجيئهم ولكن بما أنهم لم يأتوا فقد وزع الأسرى . وقال إنه سوف يشفع لهم ويطلب من المسلمين إرجاع أسراهم إذا أرادوا . وبعد بعض التردد ، تخلى جميع المقاتلين عن أسراهم إلى وفد هوازن . وقبل مغادرتهم ، سأل النبي ﷺ عن مالك ، رئيسهم ، فقيل له إنه لجأ إلى بني ثقيف ، فحملهم رسالة له : إذا جاء مالك مسلماً ، فإنه سيعيد له أسرته وكافة ممتلكاته فضلاً عن مئة من الإبل⁽¹⁰⁾ . وقد حدث كل شيء وكأن النبي ﷺ قد اطلع على قلب مالك عندما واجهه في حنين ، إذ إنه حين سمع مالك بعرض النبي ﷺ لاذ بالفرار من قلعة الطائف ليلاً ، وجاء إلى محمد ﷺ ، وقام على الفور بالنطق بالشهادة . ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل منذ دخوله في الإسلام عندما أظهر له النبي ﷺ ثقة لا تصدق وضعها فيه حيث عهد إليه بقيادة جميع أفراد هوازن الذين دخلوا في الإسلام وأمرهم بالذهاب إلى الطائف وإنهاء مقاومة بني ثقيف ،

فانطلق أفراد هوازن على الفور. لقد أصبح مالك، الذي كاد، قبل أقل من شهر، يتسبب في القضاء على جيش محمد ﷺ، الآن مسلماً يقود حملة إسلامية تهدف إلى الإطاحة بحلفائه السابقين، لقد كانت الثقة التي أولاها له النبي ﷺ لا تصدق، لكن الأيام والسنوات اللاحقة أكدت حدس النبي ﷺ: فلم يقم مالك بتنفيذ مهمته بنجاح فحسب، بل بقي مخلصاً ومتقانياً في التزامه بالإسلام.

كان الأنصار يشاهدون ما قام به النبي ﷺ وقد تملكتهم الدهشة، حيث إنه في نهاية الأمر كانت جميع كافة الغنائم تقريباً قد وُزعت على قريش. وأخذ بعضهم يفصح عن خيبة الأمل أو حتى الاستنكار، حيث بدا لهم أن محمدًا ﷺ يفضل قومه، رغم كل ما فعله أهل المدينة له عندما كان بحاجة إليهم، وعندما جاء إليه سعد بن عبادَةَ ﷺ مندوباً عن الأنصار وأعرب عن شكواهم، أصغى إليه النبي ﷺ ثم طلب منه أن يجمع جميع مسلمي المدينة ليتحدث إليهم⁽¹¹⁾. تحدث إليهم عن ديون كل منهم تجاه الآخر، فقال لهم إنهم مدينون له بالهداية وأنه مدين لهم بما قدموه له من حماية من الاضطهاد، وقال إنه لم ينس أياً من ذلك، وطلب منهم ألا ينزعجوا من الطريقة التي وزع بها الغنائم لأنها، على أي حال، وسيلة يتألف بها قلوب بعض الناس، ليس إلا، فمحبته لهم لا تقاس بالتأكيد بكمية الأسلاب التي حصلوا عليها، لقد أدى بهم حبهم للمكاسب الدنيوية إلى نسيان معنى الحب الحقيقي لله وفي الله، وهو الحب الذي يتجاوز مكاسب وحياة هذه الدنيا، فالتناس من قريش كانوا سيذهبون بالشاة والبعير بينما سيذهب الأنصار بالنبي ﷺ، الذي قرر أن يقيم في المدينة، المدينة التي اختار الإقامة فيها، وأضاف يقول:

«لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار» (12).
أثار كلامه مشاعر الأنصار حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبيكون، لأنهم أدركوا كم كانوا على خطأ في تفسير موقف النبي ﷺ وعلامات ولائه. لقد كان وجوده معهم علامةً على حبه لهم، في حين أن الغنائم التي وزعها كانت مجرد دليل على أنه كان يعرف أن بعض القلوب كانت لاتزال متعلقة بأوهام هذه الدنيا.

ثم قرر مغادرة الجعرانة لأداء العمرة قبل العودة إلى المدينة، كان قد جاء إلى تلك المدينة لاجئاً، لكنه يشعر الآن أنها على الرغم من أن ثقافتها وعاداتها كانت مختلفة جداً عن ثقافة وعادات مكة، حيث سبق له أن عاش فيها أكثر من نصف قرن قبل اضطراره لمغادرتها، لقد استقر به المقام في بيئته الجديدة من خلال مراعاة عادات السكان وتقاليدهم وتركيبتهم النفسية وآمالهم ثم دمج الكثير من هذه الأبعاد دمجاً متكاملاً في شخصيته، لقد أحب الأنصار حباً عميقاً روحياً تجاوز القبيلة والعشيرة أو الروابط الثقافية.

عندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة وأخذ يواصل تعاليمه أخذته الدهشة لرؤية الشاعر كعب بن زهير الذي كان في السابق يسخر موهبته الشعرية للهزاء به وتسفيه قوله بأنه رسول الله، وكان كعب منذ بعض الوقت يقيم مع أحد معارفه في المدينة ويراقب حياة المسلمين اليومية، وكان يعرف أن حياته قد تكون معرضة للخطر، إذ إنه إذا تعرف عليه بعض الصحابة فإنهم لن يترددوا في قتله، وقد سمع أن النبي ﷺ يعفون عن الذين يأتون إليه، بصرف النظر عما كان عليه ماضيهم أو سلوكهم، ففي أحد الأيام، وبعد صلاة الفجر، ذهب إلى النبي ﷺ وسأله إن كان من الممكن أن

يعفو عن كعب بن زهير إذا جاء إليه، فأجاب النبي ﷺ بالإيجاب، فذكر كعب اسمه عندئذ، فاندفع أحد الأنصار ليقته لكن النبي ﷺ أوقفه وقال له إن كعباً جاء تائباً ولم يعد مثل ما كان عليه سابقاً. ثم قام الشاعر وألقى على النبي ﷺ بعض أبيات تعبر عن احترامه وحبه للنبي ﷺ ويطلب فيها العفو، تأثر النبي ﷺ تأثراً عميقاً، وعندما انتهى كعب من إلقاء شعره، ألقى النبي ﷺ عليه عباة ليعبر لا عن أنه صفح عنه فحسب بل أيضاً عن ثنائه على شاعريته المتميزة، وقد كان لمحمد ﷺ ذوق جمالي متميز وكان يحب الفصاحة وموسيقى الكلام، كانت الأبيات الشعرية التي تعبر عن الجمال وتنقل عمق المشاعر والروحانية، وتؤكد على حقيقة الإله الواحد الأحد فضلاً عن محبة الكائنات، كل هذا كان جزءاً من عالمه الطبيعي وأعمق خلفية ثقافية له، كان ذلك الفن وتلك الروحانية في الكلام طيلة حياته وسيلة للتعبير عن أعماق الذات على أمل الارتقاء بشكل طبيعي إلى الله.

تبوك

عندما ولدت ماريّا - رضي الله عنها - إبراهيم، أعرب النبي ﷺ عن فرحة كبيرة لدى سماع أنباء ولادة الطفل، وقد أולם بهذه المناسبة ثم أودع الطفل لدى مرضعته في شمال المدينة، كما كانت عليه العادة في المدينة، وفي هذا الوقت كان النبي ﷺ يقوم بزيارات مطردة لابنه. وأصبحت الحياة في المدينة أكثر سلاماً بكثير، مع أنه كان لابد من تنظيم بضع حملات في المنطقة، لاسيما بغية العمل على عدم احتفاظ القبائل التي دخلت حديثاً في الإسلام بالأصنام، وعدم القيام بمحاولات للتوفيق

بين عبادة الأصنام والإسلام، وهو ما كان النبي ﷺ يحاربه دائماً، لاسيما، كما رأينا، حيث إن الوحي أمره بأن يقول لخصومه وللذين ينكرون حقيقة الإسلام: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦). كان لأنبياء انتصار البيزنطيين على الفرس بعد بضعة أشهر أثر مهم على المسلمين، إذ أن الوحي قد تنبأ بانتصارهم قبل بضع سنوات من الحدث، وقد جاء في سورة الروم ذكر الهزيمة (التي حدثت قبل مغادرة المسلمين لمكة) التي سيليها انتصار البيزنطيين في بضع سنين (14).

﴿عَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (15).

فالأحداث لم تثبت الوحي القرآني فحسب، بل إن أنبياء أفول قوة الفرس كانت تبشر باتفاقات محتملة مع النصارى في الشمال، ولم يكن المسلمون ليكتشفوا ذلك إلا بعد بضعة أسابيع، وفي الوقت الراهن، كانت الأنباء الواردة من الشمال تثير القلق الشديد، فكل شيء كان يوحي بأن جيوش هرقل البيزنطية قد تحالفت مع القبائل العربية وأنهم كانوا يستعدون معاً لشن هجوم واسع النطاق على محمد ﷺ، «إمبراطور العرب الجديد». كان لابد من رد فعل فوري من جانب المسلمين، وكانت الأمور والحملة على درجة كبيرة من الخطورة حيث إن النبي ﷺ أخبر جميع الصحابة، وللمرة الأولى، بمقصده، فقد كان عليهم التوجه إلى الشمال لشن حرب وقائية استباقاً لتقدم جيوش العدو وإذا دعت الضرورة لمفاجأتهم في

أرضهم. لم يكن فصل السنة ملائماً وكان على الجيش مواجهة حر شديد إلى أن يصل إلى الشمال، كانت التعبئة عامة وطلب النبي ﷺ من الصحابة الإسهام بكل ما يستطيعون لتغطية تكلفة الحملة، قدم عمر رضي الله عنه نصف ماله وفهم درساً في نكران الذات من أبي بكر رضي الله عنه الذي وضع كل ما يملكه تحت تصرف النبي ﷺ. وقدم عثمان رضي الله عنه مطايا لنصف الجيش، وتمت مصادرة كافة الجمال والخيول في المنطقة، لكن كل ذلك لم يكن يكفي لسد حاجات جميع الجنود فاضطر النبي ﷺ إلى رفض طلبات بعض الصحابة في الاشتراك في الحملة، فبكى بعضهم حيث إنهم كانوا يعرفون مدى أهمية الحملة. كان جيش العدو على درجة من القوة المتوقعة حيث إن مستقبل الجماعة كان في خطر، انطلق الجيش في نهاية السنة 630 (الشهر التاسع للهجرة) وبلغ عدده ثلاثين ألفاً من المقاتلين بقيادة النبي ﷺ. وقد طلب من علي رضي الله عنه البقاء في المدينة مع أسرته، فسخر المنافقون منه، فلم يستطع تحمل ذلك وسرعان ما لحق بالجيش في أول توقف له، غير أن النبي ﷺ أعاده وطلب منه أن يكون مثلاً كان هارون لأخيه موسى - عليهما السلام - الوصي على شعبه أثناء غيابه.

كان الحر شديداً، كما هو متوقع، وكان السير إلى الشمال صعباً. وقد فضل أربعة من صحابة النبي ﷺ المخلصين البقاء في المدينة، لما يعرفونه من صعوبة الرحلة، وشعر أحدهم - أبو خيثمة رضي الله عنه - بندم شديد وبعد نحو عشرة أيام قرر اللحاق بالحملة. فوصل عندما كان الجيش قد عسكر في تبوك، وقد سر النبي ﷺ كثيراً لوصوله حيث إنه شعر بالحزن لتخلف الصحابة الأربعة، وهو ما لا يمكن أن يفسر إلا بالجبن أو بالخيانة، وقد

صفح النبي ﷺ عن أبي خيثمة رضي الله عنه عندما اعترف بدمه وبالحاجة الملحة التي شعر بها للالتحاق بالجيش، لكن هذا لم يكن حال المؤمنين الثلاثة الآخرين، الذين كان من بينهم كعب بن مالك. فقد فضلوا البقاء في المدينة لإدارة أعمالهم فيها⁽¹⁶⁾.

بقي جيش المسلمين في تبوك عشرين يوماً، لكن اتضح تدريجياً أن إشاعات الهجمات من الشمال لم يكن لها أساس من الصحة، فلم يكن يوجد أي قبيلة تستعد للحرب، ولم يوجد أي علامة على وجود البيزنطيين في المنطقة، ومع أن الحملة كانت شاقة جداً إلا أنها لم تكن من دون فائدة، فالأعداد الكبيرة من جيش المسلمين كان لها وقع كبير في جميع أنحاء الجزيرة، وأجبرت القبائل الشمالية على إدراك مدى قدرة النبي ﷺ على حشد الجنود ومدى حركية قواته التي لا تصدق، وتمكن النبي ﷺ، وهو في تبوك، من إقامة تحالفات مع قبيلة نصرانيته وأخرى يهودية: حيث احتفظت كل قبيلة بدينها مع قبول دفع الجزية مقابل حماية الجماعة الإسلامية لهما من الهجوم، وهكذا فقد فهم أن الجزية هي ضريبة عسكرية جماعية تدفعها قبائل لم يكن يجب عليها مشاركة المسلمين في أعمالهم الحربية، ولكن مقابل ذلك كان يجب على سلطة المسلمين ضمان الدفاع عنهم وحمايتهم وبقائهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك⁽¹⁷⁾. من تبوك أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه ليتوغل في الشمال لمحاصرة قلعة نصرانية وإقامة تحالف مماثل بغية تأمين الطريق المؤدية إلى العراق وسوريا، وقد تكللت كافة هذه العمليات بالنجاح وعاد النبي ﷺ إلى المدينة مع جيش المسلمين.

عند وصوله أخبر بوفاة ابنته أم كلثوم - رضي الله عنها - فشعر بحزن عميق وكذلك فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي فقد زوجة للمرة الثانية (كان قد تزوج اثنتين من بنات النبي صلى الله عليه وسلم). أما بالنسبة للصحابة الثلاثة فقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الابتعاد عنه وأمر ألا يكلمهم أحد من الصحابة إلى أن يقضي الله أمره فيهم، ومر خمسون يوماً قبل نزول وحي بالعفو عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨).

عندما سمع كعب النبا سأل النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان وجهه يطفح بالفرح، إن كان العفو جاء من عنده أو من عند الله، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه نزل به الوحي، واستقبل النبا بالفرح جميع الصحابة الذين كان عليهم مقاطعة إخوانهم الثلاثة، كما أن الوحي انطوى على درس عميق، إذ إنه بين مدى الأنانية في تفضيل إدارة الشؤون الشخصية بدلاً من الالتزام، بالجسد والروح والمال، بالدفاع عن الجماعة الإسلامية الروحية، وقد انطوى هذا الدرس على بعد آخر وهو أن التزام الضعيف الرعدي - الذي يكاد يكون خيانة - يمكن أن ينال الصفح عندما تعود القلوب بصدق إلى الواحد الأحد.

الوفود

أطلق على السنة التاسعة للهجرة اسم «عام الوفود»؛ فقد أصبحت الجماعة الإسلامية الآن تتمتع بالقوة والسلطة بحيث إنه جاءت وفود من كافة أنحاء الجزيرة لإقامة تحالفات أو توقيع موثائق⁽²⁰⁾. كان أول وفد

قدم إلى النبي ﷺ هو وفد بني ثقيف، حيث إن مالكا كان قد ضرب عليها حصاراً شديداً حال دون إبرام أي تحالفات مع القبائل المجاورة (التي اعتنق معظمها الإسلام على أي حال أو وقعوا ميثاقاً مع محمد ﷺ)، وأعلن الوفد عن الرغبة في الدخول في الإسلام، لكنهم كانوا يريدون التفاوض بشأن بعض بنود بشأن دينهم وممارستهم: كانوا يريدون الاحتفاظ بصنم اللات والإعفاء من الصلاة، فرفض النبي ﷺ المساومة بشأن هاتين النقطتين، كما كان يفعل كلما سئل بهذا الشأن، إذ إن قبول الإسلام يعني عبادة الله الواحد الأحد وحده والصلاة له وفق المعايير التي جاء بها الوحي وأقرتها السنة، وفي نهاية المطاف قبلوا شروط الاتفاقية.

وجاءت أيضاً وفود أخرى من قبائل نصرانية ويهودية إلى النبي ﷺ ولم يجبرهم على الدخول في الإسلام، فكما فعل مع القبيلتين في الشمال، أبرم معهم حلف مساعدة: فهم يدفعون الجزية ويقوم محمد ﷺ وجيشه بحمايتهم والدفاع عنهم، وهكذا، فقد اتضحت الرسالة في أنحاء الجزيرة: فالقبائل التي تقبل الإسلام يجب أن تتخلى عن أي فكرة تتعلق بالتوفيق بين دينهم والإسلام؛ ذلك لأن النبي ﷺ لا يتفاوض بشأن أسس الدين. وما إن يتم النطق بالشهادة حتى يتعين تدمير الأصنام وتنفيذ أركان الإسلام من صلاة وصيام ودفع زكاة وحج، وعندما كانت القبائل تريد الاحتفاظ بتقاليدها، كانوا يبرمون اتفاقاً يتضمن بنوداً واضحة مماثلة: دفع الجزية مقابل الحماية، وكان النبي ﷺ يدع العشائر وزعماءها يختارون بحرية هذين البديلين، وهو ما فعله الكثيرون منهم في الأشهر التي أعقبت العودة من تبوك.

كان موعد الحج يقترب وطلب محمد ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه أن يحج بالناس إلى مكة⁽²¹⁾. فانطلقوا خلال الأسابيع اللاحقة. وفيما كانوا في الطريق نزل على النبي ﷺ وحي مهم بشأن مكة ولاسيما الشعائر قرب الكعبة، فأرسل علياً رضي الله عنه ليلحق بالحجيج وينقل إليهم رسالة الوحي التي وردت في الآيات الأولى من السورة رقم 9 (السورة الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)⁽²²⁾. أولاً، أعلنت الآيات بأوضح العبارة أن الطقوس التي كانت تمارس سابقاً حول الكعبة (حيث كان بعض الحجاج يطوفون وهم عراة) لم تعد مقبولة وأن عبدة الأصنام أمامهم أربعة أشهر للاختيار بشأن مستقبلهم - إما أن يتوقفوا عن ممارسة طقوسهم قرب الكعبة، أو يغادروا المنطقة كلياً، أو يدخلوا في الإسلام. بعد هذه المهلة سوف يقاتلهم المسلمون، عدا أولئك الذين أبرموا حلفاً (تُحترم بنوده بالطبع) أو طالبوا صراحةً بالحماية (التي تمنح لهم).

كانت الرسالة حاسمة وقررت أن الكعبة، المسجد الحرام، أصبحت مخصصة حصرياً لعبادة الواحد الأحد، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يمكنهم دخولها⁽²³⁾. جاء في الآيات ما يأتي: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾⁽²⁴⁾. وقد فهم معظم المسلمين، ومعظم العلماء بعدهم، أن هذا الحظر ينطبق فقط على الحدود المقدسة في مكة، لا على المساجد الأخرى التي يمكن أن يدخلها النساء والرجال من غير المسلمين⁽⁵⁾ إن ما نصت عليه الرسالة هو الإرساء الواضح لقواعد عبادة الواحد الأحد، أي التوحيد، بوصفه العبادة الممكنة الوحيدة في المركز، قرب بيت الله، الذي يتوجه إليه المسلمون من جميع أنحاء العالم.

إبراهيم

في السنة العاشرة مرض إبراهيم الصغير - الذي كان عمره سنة ونصف تقريباً - مرضاً شديداً، ففي ذات الوقت الذي كان يتم فيه إرساء قواعد دين الواحد الأحد في جميع أنحاء الجزيرة حيث كانت المحن تتناقص بشكل ثابت وعدد الذين يدخلون الإسلام في ازدياد متواصل، رأى النبي ﷺ ابنه الوحيد يغادر الحياة ويغادره، كان يزوره كل يوم ويقضي الساعات بجانبه. وعندما لفظ الطفل أنفاسه الأخيرة، أخذه النبي ﷺ بين ذراعيه وضمه إلى صدره والدموع تهمر من عينيه، تعبيراً عن حزنه العميق، وقد دُهِش عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو من صحابته المخلصين، لهذا البكاء لأنه كان يظن أن النبي ﷺ كان قد منع من هذا التعبير عن الحزن، لم يستطع النبي ﷺ أن يتكلم، في أول الأمر، ثم أوضح له بأن الحظر يتناول مظاهر الحزن المبالغ فيها، على شكل العويل أو السلوك الهستيري، ولكن ليس التعبير الطبيعي عن الحزن والألم، ثم عبر عن حزنه بكلمات أصبحت، في الواقع، درساً روحياً، حيث أعلن بأن دموعه كانت «علامات تدل على الحنان والرحمة». وأضاف ملاحظة انبعثت من خبرته، ولكنها تنطبق على الحياة اليومية لكل مسلم، «من لا يرحم لا يُرحم»⁽²⁶⁾. ففي لحظات الحياة الصعبة فإن الرقة والرفافة والرحمة والتعبير عن التعاطف التي يقدمونها لبعضهم تقربهم من الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، فمن خلالها يصبح الله قريباً من قلب المؤمن ويعطي المؤمن ما أعطاه لأخ أو أخت في الإنسانية، قد تأثر النبي ﷺ كثيراً ولم يتردد في إظهار حزنه والتعبير عنه، فأضاف: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب»⁽²⁷⁾. لقد امتحنه ربه ثانية في إنسانيته ورسالته، لقد فقد كثيراً من أحبابه - أصحابه وزوجته

خديجة - رضي الله عنها - وثلاثاً من بناته وثلاثة من أبنائه⁽²⁸⁾. لقد كانت حياته تخالطها الدموع لكنه ظل رقيقاً في قلبه وثابتاً في رسالته. كانت هذه الكيمياء من الرقة والثبات هي التي رضي عنها الأقرب إلينا من حل الوريد، ففي ذلك الوقت، في السنة العاشرة للهجرة، بدا العالم أنه ينفث على رسالة محمد، وبدا أن مصير محمد ﷺ الإنساني قد يختزل في ذلك القبر الصغير الذي ووري فيه جسد إبراهيم، الذي صلى عليه، لقد كان النبي ﷺ واحداً من المصطفين، وظل النبي ﷺ بشراً.

بعد بضع ساعات من عودته من المقبرة حدث كسوف للشمس، وقد سارع المسلمون إلى قرن الكسوف بموت طفل النبي ﷺ واعتبروا ذلك معجزة، نوعاً من الرسالة من الله إلى نبيه، لكن محمداً ﷺ وضع حداً لكافة تلك التفسيرات وقال مشدداً: «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد أو حياته»⁽²⁹⁾. وهكذا فقد ذكر محمد ﷺ أصحابه بحقيقة الأشياء وعدم ارتكاب أخطاء وتجنب الوقوع في الخرافات. لقد كان هذا، لهم وله، درساً روحياً في التعقل والتواضع: كان على البشر، ومن بينهم النبي ﷺ أن يتعلموا كيف يفارقون أحبتهم ويرونهم يرحلون، بصمت وبتعقل في جو من عدم المبالاة لنظام الأشياء. إن اختبار الإيمان والبشرية الذي جعل النبي ﷺ يذرف الدموع كان على وجه التحديد يتكون من التعلم، في قلب أبدية الخلق والأطوار اللامتناهية، كيفية إيجاد القوة في مواجهة محدودية ما هو إنساني والفراق المفاجئ والموت، إن أية وجود الواحد الأحد عند وفاة شخص ما لا تكمن في حدوث أي معجزة بل في دوام النظام الطبيعي، في أبدية خلقه الذي يتجلى هنا وهناك في مرور المخلوقات، الذين يأتون ويرحلون.

الصفح والصدق

في اللحظة التي كان فيها إنجاز رسالته قد وصل بوضوح إلى مرحلته الأخيرة ظل النبي ﷺ يظهر نبيل روحه التي أدهشت وجذبت أعداءه السابقين سواء أكانوا أفراداً أم عشائر كاملة، الذين أتوه الآن بأعداد غفيرة، ومع أنه ظل منفتحاً إلا أنه كان يعلم بأن عليه أن يلزم جانب الحذر من بعض الأفراد أو الجماعات، لقد تعلم الحذر والحيطة من خلال تجربته مع بني غنم بن عوف، ومن الوحي الذي جاء بعد ذلك، فقد كان بنو غنم قد طلبوا منه، قبل مغادرته إلى تبوك، أن يدشن لهم مسجداً كانوا يريدون إقامته في قباء⁽³⁰⁾. وكان قد انشغل بالإعداد لحملة تبوك وقرر أن يذهب إلى قباء بعد عودته من تبوك، وعرف لاحقاً أن المشروع كان عبارة عن حيلة دبرها أحد المنافقين المعروف باسم أبي أمير، وأكد الوحي له هواجسه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلْزَامًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾⁽³¹⁾. كان أبو أمير يريد بناء مسجد بغية جذب المؤمنين من مسجد آخر في المنطقة، لمجرد إشاعة الفرقة وممارسة نفوذه، فمن خلال التظاهر بالإيمان والإخلاص، حاول بعض الأفراد الحصول على الامتيازات والسلطة ولم يترددوا في محاولة استخدام النبي ﷺ من أجل تحقيق هذا الهدف، مثل هذه الأوضاع كانت تحدث بشكل أكثر تواتراً مع نمو الجماعة.

وبالرغم من ذلك، ظل محمد ﷺ قريباً جداً من الناس وعلى استعداد دائم لاستقبال النساء والرجال الذين كانوا يريدون تعلم الإسلام أو الذين

كانوا يبحثون عن الحقيقة، لقد صفح كثيراً عن أولئك الذين وقفوا ضده في مواقف الصراع أو الحرب، وكان الآن يظهر الكثير من الصبر والمحبة العميقة لأولئك الذين كانوا يجاهدون، في وقت السلم، ضد أنفسهم وقلوبهم لبلوغ ضالتهم الروحية وإيجاد الطريق الذي يمكن أن يقودهم إلى الواحد الأحد، فقد كان يشاهدهم ويحبب عن أسئلتهم ويرافق تقدمهم، سواء أكان سريعاً، متردداً أم في بعض الأحيان متمرداً أيضاً. لدى عودته من حنين، قال النبي ﷺ: «لقد رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وقد سأل أحد الصحابة: «ما الجهاد الأكبر، يا رسول الله؟». فأجاب: «مجاهدة النفس»⁽³²⁾. فبالنسبة للمسلمين، كما هي الحال لجميع البشر، الجهاد الداخل هو الأصعب والأكثر نبلاً والذي يفيض أكبر معرفة للنفس والصفح وبالطبع، الصدق مع النفس، لقد أظهرت الحياة اليومية وجهادها الأكبر للمسلمين الآن أنه من أصعب الأمور العيش في سبيل الله، في نور وشفافية وانسجام ومتطلبات روحية وصبر وسلام.

كان النبي ﷺ يطلب ممن حوله من غير المقتنعين بصدق رسالته، أن ينظروا في آيات الخلق وأن يبحثوا عن المغزى في الوقت الذي يجاهرون فيه أوهام الذات وغرورها، لقد علم المسلمون - الذين آمنوا بوجود الواحد الأحد - مواصلة جهادهم الداخلي والتواضع وإدراك مدى هشاشتهم، والسعي إلى أن يستمدوا الغذاء الروحي من ذكر الله، وكما ورد في القرآن، أن يدعو الله بأن يثبت قلوبهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾⁽³³⁾. كان الرسول ﷺ يصلي ويدعو الله قائلاً: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»⁽³⁴⁾. وهكذا، في وقت السلم كان بعض الناس يبحثون عن الحقيقة وبعضهم الآخر يبحثون عن الإخلاص، في الوقت الذي كانوا جميعاً يعانون

من شكل جديد من الجهاد الداخلي الذي يتطلب الجهد والصبر وضمير حي على الدوام، وفي الوقت الذي يبدو فيه أن إمكانية التثبيت النهائي للدين الأخير قريب المنال، طُلب من كل منهم أن يعود إلى عالمه الداخلي لينشد النور أو المغفرة، ليجد السلام ورحمة الذي يتوب دائماً على الذين يأتون إليه ويعودون إليه، وقد ذُكر الوحي النبوي ﷺ بأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٢٥).

تلك الآيات عبرت عن الحاجة إلى العودة إلى الواحد الأحد حتى عندما بدا أن الناس قد أدركوا أخيراً صدق الرسالة، وبما أن ذلك كان بداية الجهاد الدائم ضد المظاهر، فقد كان على النبي ﷺ، مرة أخرى، أن يتصدى إلى توترات متناقضة، وهي الطريقة الوحيدة لتجاوز الذات والسمو إلى الله، وفيما كانت الأفواج تأتيه من كل مكان، فقد طُلب منه العودة إلى عزلة القلب ومواصلة حوار مع الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، وفيما كان النصر يأتيه في هذه الدنيا، فقد فهم أن عليه الاستعداد للرحيل، لترك حياته، والعودة ليكون قريباً من الواحد الأحد، وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لاحقاً أن نزول تلك السورة كان إعلاناً عن نهاية رسالة النبي ﷺ، وفي الواقع، عن رحيله الوشيك.

حجة الوداع

في شهر رمضان من تلك السنة العاشرة تلقى النبي ﷺ علامة أخرى من الله، وأخبر ابنته فاطمة عنها: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب» (36). بقي

أحد أركان الإسلام الذي لم يقم به النبي ﷺ واقترب الوقت للاستعداد له، وانتشر الخبر على نطاق واسع بأن النبي ﷺ سيرأس الحج القادم إلى مكة، وفي الأسابيع اللاحقة انطلق على رأس ثلاثين ألفاً من حجاج المدينة، الذين انضم إليهم ثلاثة أضعاف عددهم من جميع أنحاء الجزيرة.

في مكة قام النبي ﷺ بمختلف شعائر الحج وأوضح للصحابة الذين كانوا برفقته أنهم كانوا يحيون عبادة التوحيد الخالص لأبيهم إبراهيم عليه السلام. كان الحج، كما كانت عليه حياة النبي ﷺ كلها، عودة إلى المنبع، إلى الأصل: عودة إلى الله، الواحد الأحد، على خطوات النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أول من بنى الكعبة، بيت الله، لعبادة الواحد الأحد، كان الصحابة يراقبون كل حركة يقوم بها النبي ﷺ، الذي كان يقوم، في واقع الأمر، بإرساء قواعد شعائر الحج على وجه الدقة، فقد قال لهم: «خذوا عني مناسككم»⁽³⁷⁾. وفي اليوم التاسع من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة، خاطب النبي 144 ألفاً من الحجاج على جبل الرحمة⁽³⁸⁾. تحدث في مقاطع قصيرة وكان رجال حوله يرددون كلماته كي يسمع كل من كان في الوادي كلامه⁽³⁹⁾.

كان محتوى الرسالة قوياً وعاطفياً، بدأ النبي ﷺ بالقول بأنه لا يدري إن كان سيلقاهم «في هذا المكان بعد عامهم هذا»⁽⁴⁰⁾. ثم ذكرهم بقدسية أرواحهم وشرفهم ومالهم، وأوضح بأن عهد الجاهلية قد ولى وممارساته وصراعاته ومنافساته التي تقوم على أساس القوة والكسب. ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون متحدين بالإيمان والأخوة والمحبة، التي تحولهم إلى شهداء لرسالة الإسلام. ويجب ألا يقبلوا في أي ظرف أن يكونوا «ظالمين أو مظلومين»⁽⁴¹⁾، ويجب أن يعلموا أن الناس متساوون أمام الله والتواضع

اللازم لأنه «كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»⁽⁴²⁾. وذكر النبي ﷺ كافة المسلمين بحسن معاملة زوجاتهم وأضاف: «اتقوا الله في النساء»⁽⁴³⁾. وأضاف، كأنما يدل على الطريق وأوضاعه لجميع المؤمنين الموجودين معه ولجميع الذين سيتبعون تعاليمه عبر العصور: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً: كتاب الله وسنة رسوله»⁽⁴⁴⁾. وبعد كل وصية كان يقول: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!» وفي نهاية الخطبة، كان الحجاج يجيبون: «شهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة». وأنهى النبي ﷺ خطبته بالقول: «اللهم فاشهد... وليبلغ الحاضر منكم الغائب».

كان النبي ﷺ حقاً شاهداً أمام الجماعة الروحية المسلمة، وفي تواصل معهم في قلب الحج - الذي يقتضي هو ذاته البساطة ووحدة البشر أمام خالقهم - أعاد الرسول ﷺ إلى الأذهان النقطة الأساسية في رسالة الواحد الأحد: المساواة المطلقة للبشر أمام الله، بصرف النظر عن العرق والطبقة الاجتماعية أو الجنس، إذ إن الشيء الوحيد الذي يميزهم يكمن فيما يفعلون بأنفسهم، بذكائهم وصفاتهم والأهم من ذلك شيء، بقلوبهم. فمن أي مكان يأتون، سواء أكانوا عرباً أم لا، وبصرف النظر عن لونهم أكان أسود أو أبيض أو أي لون آخر، ومهما كان عليه مركزهم الاجتماعي، أكانوا أغنياء أم فقراء، أكانوا رجالاً أم نساءً، فإن البشر يتميزون بما يولوه لقلوبهم من اهتمام، وتربيتهم الروحية، السيطرة على الأنما وازدهار الإيمان والكرامة والطيبة ونبيل الروح وعلى سبيل التماسك، الالتزام بين إخوانهم في البشرية لمبادئهم، فأمام آلاف الحجاج من كافة الأصول، الرقيق ورؤساء القبائل، النساء والرجال، شهد النبي ﷺ أنه أدى مهمته

في ضوء رسالة الواحد الأحد، وشهد جميع المؤمنين بصوت واحد أنهم
استلموا الرسالة وفهموا معناها ومحتوياتها.

بعد بضع ساعات، نزل وحي مفاجئ على النبي ﷺ تضمن الآية التي
تؤكد أن مهمته قاربت نهايتها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽⁴⁵⁾. كانت آخر مرحلة من مراحل
النبوة قد قاربت على الانتهاء وعاد الرسول ﷺ إلى المكان الذي اختاره،
بيته الذي يتجاوز هذه الحياة، بالقرب من الواحد الأحد.

